المحاضرة رقم 02

تطور فن القصة القصيرة في الجزائر

1- مرحلة ما بين الحربين العالميتين:

يمكن أن نشير في هذا السياق إلى تردد بعض الدارسين في تناول موضوع القصة الجزائرية القصيرة إبان هذه الفترة؛ وذلك لعدم توفر المعطيات الفنية التي تميز هذا الفن، وأن ما كان يُكتب هو عبارة عن تأملات، وشبه خواطر غير منتظمة، ولا تؤلف قصة بالمفهوم النقدي الحديث. فالباحثة عايدة أديب بامية، ترى أن «القصة القصيرة يجب أن تُدرس مع بعض التحفظات والحذر، ذلك لأن العديد منها يفتقر إلى المتطلبات المبدئية للقصة القصيرة» [1]. وقد تعددت أسباب تأخر القصة في الظهور، منها ضعف النقد وانعدام النقاد الذين يسهمون في توجيه القارئ، وكذلك ضعف النشر، وعدم وجود قارئ نتيجة الأمية، وسياسات التجهيل التي مارسها الاحتلال الفرنسي ضد الشعب الجزائري [2]. وقد حدثت الصلة بعد الحرب العالمية الأولى مع المشرق العربي، من جهة، ومع الغرب من جهة ثانية؛ «أما الصلة بالمشرق العربي فقد أثرت في النهضة الأدبية عامة في الجزائر واقتفى الكثير من الشعراء والأدباء الجزائريين أثر الأدباء المشارقة فيما يكتبون وينتجون. وإن كان هذا يبدو واضحا جليا في الشعر فإنه بالنسبة للقصة القصيرة بالذات كان ضئيلا.» [3]. ويبدو الأمر معاكسا فيما يخص الصلة بالغرب؛ «إذ كان لقاء الجزائر بأوروبا قبل الاحتلال لقاء أساسه التجارة والمعاملات الرسمية ولم يوجد حكم وطني يبعث البعثات إلى أوروبا لتستفيد الجزائر من نهضتها الفكرية والحضارية، وكان من الممكن أن يحدث هذا بعد الاحتلال إلا أن الشعب الجزائري اصطدم بالاستعمار الفرنسي منذ اللحظة الأولى، فأحس بأن الاستعمار جاء ليقضي على شخصيته وعروبته، ولهذا اتخذ موقف المدافع من هذه الشخصية وبالتالي موقفا سلبيا من الثقافة الغربية.» [4]. وقد نوهنا سابقا إلى النماذج القصصية الأولى التي كانت البذور التكوينية الأولى لفن القصة في الأدب الجزائري. وهي المقال القصصي، والصورة القصصية، والعينات في هذا الشأن كثيرة ومتنوعة، وهي مبثوثة في جرائد الحركة الإصلاحية، وبعض الدراسات التي أرّخت لظهور هذا الفن.

وإثبات المحاولات الأولى في كتابة القصة قد تكتسيه بعض الصعوبة؛ لعدم توفر الوثائق المكتوبة. ولكن يمكن الاستعانة ببعض ما دون في بعض الصحف، من مثل صحيفة الشهاب، أو غيرها من الصحف الأخرى. «وأول قصة قصيرة هي (دمعة على البؤساء) كتبها علي بكر السلامي[والصواب محمد بن أبي بكر السلاوي]. ولهجتها تتماثل مع لهجة الإصلاحيين، حيث تهاجم الطرقيين وتتهمهم باستغلال الشعب لمآربهم الذاتية. وقد انتقد الإصلاحيون [والصواب الإصلاحيين] رؤساء المنظمات الدينية لا سيما (المرابطين) باتهامهم أنهم مسلمون غير مخلصين.» [5]. وقد أشرنا سابقا إلى هذه الفكرة. وهذه القصة عبارة عن نص نثري نشر على مرحلتين، في: 18 أكتوبر، و28 أكتوبر 1926. في العددين 63 و64 من جريدة الشهاب. وقد تحدث فيها عن مشاركة أحد أصدقائه أحزانه. وينسج

[1]) عايدة أديب: تطور الأدب القصصي الجزائري. ص306.
[2]) ينظر كتاب عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث. ص164.
[3]) عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث. ص165.
[4]) عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث. ص165 – 166.
[5]) عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري. ص306.

أحداث هذا النص النثري القصصي على شكل خواطر تؤسس في الأخير خطاباً وعظياً يدور كله حول مظاهر الاستغلال التي يمارسها مشايخ الطرقية المزيفون الذين بهرجوا أنفسهم وزينوا للناس سوء أفعالهم، فأضلوهم السبيلا. وصاحبه أحد ضحاياهم. فقد ورث مالا كثيرا عن والده المتوفى، ولكنه بمخالطتهم أصبح فقيرا بالي الأسمال لا يجد ما يسد رمقه، ورمق أولاده. وقد عمل الكاتب على وصفهم بأبشع الصفات، من مثل: « كأن الرؤوف الرحيم ما خلق المساكين إلا لأن يكونوا تعبير أحلام الشياطين، وفريسة لفرقة الشاطحين»[1].

ويذكّر صاحبه بدهاء هؤلاء المشايخ، واشتداد حيلهم تجاه الناس، وخسة طباعهم، فيقول له:« أنسيتَ ساعة ترددك إلى الشيخ وأنت في ثروتك العظيمة وزيك العجيب فتراه مقبلا عليك بكل جوارحه ونفيس أوقاته يسحرك بتحاليله تارة، ويستخرج منك بتبسيماته ما يمد يده إلى مستودعاته، ومعاين كيوسه بتتبع التقاط ما سُقته إليه، وإلى أغراضك الشاقة – تارة أخرى، حتى إذا نفدت تلك الدوالب التي كنت تحرك بها جوارح الشيخ صرت ترمى بدل تلك المجاملة ردا وإبعادا، وعوض تلك التبسيمات وجوها كاشرة وقلوبا قاسية وأبوابا دونها – بالخصوص – مغلقة.» [2].

ويمكن في هذه المرحلة التي مهدت لظهور، وانتشار فن الكتابة القصصية، أن نتناول (محمد بن العابد الجلالي بعده أحد الأقلام الهامة في هذه المرحلة التاريخية؛ حيث ذهب في تناول بعض القضايا التي كانت تشغل بال الناس اجتماعيا، وسياسيا، وثقافيا. ولم يكن شكل القصة قد اكتمل بناؤه الفني، وإنما هو بداية لتأسيس الحكاية على بناء سردي، يوظف عناصر الوعظ، والإرشاد، وأسلوب التوعية، والخطابة، وهذه الخصائص تتماشى مع طبيعة المرحلة.

محمد بن العابد الجَلاَّلي:1890 – 1967.

من مواليد أولاد جلال التابعة لولاية بسكرة. نشأ نشأة دينية على يد والده؛ إذ حفظ القرآن، ومبادئ اللغة العربية. وانتقل إلى مدينة قسنطينة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وهناك التقى بالإمام عبد الحميد بن باديس. وابتداء من سنة 1926. صار يكتب في جريدة المنتقد، وبعدها الشهاب. مارس مهنة التعليم في مدينة العلمة بتكليف من ابن باديس، وذلك في إطار استراتيجية الفكر الإصلاحي الذي كان يسخر رجالات العلم الأكفاء في تنفيذ البرنامج المسطر. كان مهتما بالكتابة؛ حيث ألّف كتابا سنة 1927 بعنوان: تقويم الأخلاق. وأنشأ مجلة (أبو العجائب) بقسنطينة سنة 1934. وهي جريدة هزلية لم تدم طويلا. وفي سنة 1939 أصدر كتابا موسوما بـ: الأناشيد المدرسية. وبعد وفاة الشيخ ابن باديس سنة 1940 انتقل إلى مدينة بسكرة أين زاول مهنة التدريس وكان مديرا للمدرسة. وفي سنة 1947 انضم إلى حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية. وفي 29 نوفمبر 1954

[1]) محمد بن أبي بكر السلاوي: دمعة على البؤساء. جريدة الشهاب. العدد 63 / 18 أكتوبر 1926.
[2]) محمد بن أبي بكر السلاوي: دمعة على البؤساء. جريدة الشهاب. العدد 64 / 28 أكتوبر 1926.

التحق بصفوف ثورة التحرير. ووقع أسيرا، وحكم عليه بعشر سنوات. وبعد إصدار الحكم خاطبهم قائلا: ومن زعم أنكم ستظلون هنا طوال العشر سنوات الآتية؟ [1].

وقد كتب نصوصا نثرية قصصية يمكن عدها من بين المحاولات الأولى التي نشرت على مجلات الحركة الوطنية مثل الشهاب، والبصائر وغيرهما. ومن بين ما نشر قصة (في القطار) وهي قصة مكتوبة باسم مستعار هو (رشيد)[2]. ويبد أ القصة بتوجيه اللوم والعتاب إلى أولئك الذين اتهموه بالفرار من المعركة، وذلك حين غادر الجزائر صوب فرنسا وسويسرا. وتبنى القصة على حوار إثر لقاء دار بين راوي القصة (وهو الكاتب) وزوجين ألمانيين. ودار الحديث بين الرجلين؛ إذ الألماني صرح له بأنه زار الجزائر، وأعجب بناسها كرما وضيافة، وأنه يعرف بعض الرجال ممن خالطهم هناك. وفي سياق الأدب الناقد، والساخر، نجد هذا الكاتب قد« وجه نقدا لاذعا ومكشوفا للسياسة الاستعمارية، من خلال محادثة مع اثنين من الألمان التقى بهما في القطار أثناء تنقله في فرنسا. ونراه يعتمد بصورة رئيسية على السخرية والتهكم لكشف حالات الظلم التي تمارسها الإدارة الفرنسية بمصادرة ممتلكات الجزائريين وعدم وجود الممثلين المناسبين للجزائريين الأصليين داخل البرلمان»[3].

وهناك قصة أخرى موسومة بـ: (السعادة البتراء) [4]. وهي قصة تروي حياة أب (يدعى أبا القاسم) وهو رجل مثقف، وموظف في مكتب إحدى المديريات. رزق بابن بعد سن الخمسين(سمي محمد). ويُرزق صديقه وجاره القاضي في اليوم نفسه بابنة (سميت سعاد). وعندما كبر ودخل المدرسة وكان مثالا في الجد والاجتهاد، والأخلاق العالية. نقله أبوه لاستكمال التعليم في مدينة بجاية لأنها الأليق به، فترعرع في بيت صديقه القاضي في ظل التنشئة التي تلقاها هناك. وكان أبوه يزوره باستمرار ليطمئن عليه. وكان الشاب يحكي للوالد عطف وحنان ابنة القاضي (سعاد). وهنا فهم الأب تعلق ابنه بها فقرر خطبتها له، وحين التقى بأب البنت بادره هذا الأخير بالأمر وحصل القبول وكانت النهاية بالزواج. « بيد أن موقف الكاتب هنا أكثر انتقادا. فمن جهة، نجده ينتقد الزواج الملفق، ويقدم قصته كمثال على مفهومه للزواج السعيد، الذي يراه قائما على الحب والتفاهم...وهو ينتقد فرص العمل القليلة التي تعطى للجزائريين، حيث أننا نرى بطل قصته يتنافس مع ثلاثين شخصا آخر على وظيفة كاتب بسيط.» [5]. ومن بين المميزات التي تبدو أيضا « النزوع الجدي إلى القص، لكنه لم يرق بمحاولته إلى قصة فنية محكمة: حدثا وشخصيات، بل امتطى شكل الحكاية والمقالة القصصية في الوقت نفسه، فتعددت الأحداث والشخصيات، وتمطى الزمن.» [6]

وتتسم قصص محمد بن عابد الجلالي بالبساطة، واستعمال الحوار، وحادثة يُبنى عليها السرد، واستعمال بنية زمنية مستقيمة. وهذه البساطة يقدم وفقها عبد الله ركيبي حكما حول شخصية هذا

[1]) ينظر كتاب عبد الملك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931 – 1954. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1983. ص513 وما بعدها.
[2]) للاطلاع على القصة، تنظر مجلة الشهاب. ج 10. المجلد11. جانفي 1935.
[3]) عايدة أديب بامية: مرجع سبق ذكره. ص307.
[4]) للاطلاع على القصة. تنظر مجلة الشهاب. ج2. المجلد 11. ماي 1935.
[5]) عايدة أديب بامية. مرجع سابق. ص307.
[6]) عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث. تاريخا..وأنواعا، وقضايا..وأعلاما. ديوان المطبوعات الجامعية. . ص167.

القاص قائلا:« والذي فهم القصة ووظيفتها في المرحلة الأولى، إنما كان فهمه لها أيضا فهما ساذجا يرى في وظيفة القصة " تأصلا للغة وتنمية لروحها"» [1]. لقد أعطى الجلاَّلي رأيه حول كتاب (الرحلة المراكشية)[2] الذي صدر في ثلاثة أجزاء من الحجم المتوسط، اتبع فيها صاحبها أسلوب الرواية. ومن بين الأحكام التي أطلقها على هذا العمل:« وقد أحسن المؤلف في اختيار الطريقة لعرض أفكاره ومعلوماته ولو أضاف إلى ذلك حسن اختيار الأسلوب، وابتعد به عن حشو السجع وأنواع البديع لسد فراغا كبيرا ما زال أدبنا المغربي يشكو عجزه عن سده.» [3]. وهذه المآخذ هي نفسها التي وقع فيها الجلالي في قصصه التي نشرت.

2- مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية:

تتحدد هذه الفترة بسنة 1945. وهي نقطة تحول هامة في الأدب الجزائري على المستوى التعبيري خاصة. وذلك يرجع إلى النهاية المزدوجة للحرب العالمية الثانية؛ فمن جهة تخلصت فيها فرنسا من الهيمنة الألمانية. ومن جهة ثانية مأساة الجزائريين في الثامن ماي، وإخلاف الوعود من قبل فرنسا، الذي أفضى إلى استشهاد أكثر من أربعين ألف جزائري. وأدى هذا الأمر إلى نقمة كبرى لدى الجزائريين تجاه فرنسا. وأن ما يصدر عن فرنسا كله باطل. واشتعل الأدب سخطا، وانتقادا، واستهزاء بكل ما يمت لفرنسا بصلة. وعلى صعيد القصة القصيرة، ظهرت مجموعة من القصص المنشورة لأحمد بن عاشور، وأحمد رضا حوحو، تحاول قراءة المشهد الاجتماعي، والسياسي من رؤى وزوايا متعددة. فقد كتب حوحو خواطره القصصية في كتاب سماه (مع حمار الحكيم). وقد كانت أول طبعة له سنة 1953 بقسنطينة. وألفه متأثرا بكتاب توفيق الحكيم (حماري قال لي) الذي تلقاه هدية من صديقة (عبد الرحمن شيبان) كما يشير في مقدمة الكتاب [4].

وراح الكاتب أحمد رضا حوحو بأسلوب تهكمي ساخر ينتقد أوضاع بلاده، على المستوى السياسي والاجتماعي والديني والثقافي. وذلك عن طريق افتعال حاثة المنام التي جاءه فيها حمار الحكيم من مصر. ودار بينهما حوار، ومن بين المشاكل التي طرحها حوار حول المرأة:

- هل تريد أن نطرق موضوع المرأة؟
- كن مرتاحا من هذه الناحية، فلا وجود للمرأة في بلادنا.
- عجبا تعيشون بدون نساء، وكيف تتناسلون؟

[1]) عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة. ص28.
[2]) للاطلاع على هذه الرحلة . تنظر مجلة الشهاب. ج2. المجلد 10. جانفي 1934.
[3]) المصر نفسه.
[4]) أحمد رضا حوحو: مع حمار الحكيم. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1982. ص9 وما بعدها.

- قلت:- لدينا آلات للنسل نحتفظ بها في بيوتنا.[1]

ومن القضايا التي كانت تؤرق الوطنيين المخلصين، المحافظين على هويتهم، قضية الزواج بالأجنبيات. وعلى ذلك يدور الحوار الآتي بينهما:

« - قلت فاسلك إذن مسلك المثقفين.

- قال: ماذا تعني؟
- قلت: أعني أن تتزوج بأتان أجنبية
- قال: ما هذا الهذيان...أأُصبتَ في عقلك؟
- قلت: أبدا...فإن الشائع في هذه الأيام هو زواج المثقفين بأجنبيات، وأي مانع في أن يتزوج حمارنا المثقف بأتان أجنبية تليق بمقامه المحترم.
- قال: إنك لا تعني ما تقول...
- قلت: لماذا؟
- قال: أما يكفي هذا الانحلال الاجتماعي و الخلقي الذي جره زواج بعض رجالكم من الأجنبيات حتى أُضيف إليه انحلالا آخر في فصيلة الحمير؟»[2]

وأمثلة القصص كثيرة ومتعددة يضيق بنا المجال لتناولها. وهي مبثوثة في جريدة البصائر. لمن يريد الاطلاع عليها.

[1]) المصدر نفسه. ص15.
[2]) أحمد رضا حوحو. المصدر السابق. ص48.